إرهاصات الدرس الصوتي عند العرب

الجزء . 1 .

يشكل الصّوت الإنساني المادة الأولى في الدراسات اللغوية لأي لسان من الألسن البشرية، وتعد الدراسات الصّوتية قديما من أصل العلوم عند العرب، لأنها اتصلت مباشرة بتلاوة القرآن الكريم لضبط أدائه.

لقد كان العرب سباقين إلى دراسة أصوات لغتهم، فقدّموا في هذا الشأن بحوثا قيّمة شهد لها المحدثون إذ وصفوا لنا الصّوت اللغوي وصفا دقيقا، على الرغم من اعتمادهم فقط على الملاحظة الذاتية التي لم تتعدّ الحس الدقيق، والأذن الموسيقية المرهفة، ومع ذلك بدت فروق في دراسة بعض المسائل الصّوتية بينهم وبين المحدثين.

إن أول درس للأصوات عند العرب أنجزه الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) في معجمه (العين) الذي يعدّ المصدر الأول في الدراسات اللغوية والصّوتية قبل (الكتاب) لسيبويه، تلميذ الخليل، الذي تضمن كثيرا من آراء أستاذه.

وتعدّ دراسة سيبويه من أصح الدراسات المتقدّمة ومازالت تعد مصدرا أساسيا عند المحدثين لدراستهم اللسانية والصّوتية في العربية، ولم تتوقف الدراسات الصّوتية عند هذين العالمين، بل تبعهما في ذلك ابن جني الذي أكمل البحث في هذا المنحى خلال كتابيه (سر صناعة الإعراب) و(الخصائص).

وما دام هذا النوع من الدراسات جاء من أوّل الأمر ليحفظ القرآن الكريم بوصفه نصا مقدّسا، فقد انصبّ اهتمام العلماء في هذا السياق على كيفيات أداء هذا النص تجويدا وترتيلا، فتعمّقوا في دراسة علمي التجويد والترتيل، وضبط أسسهما العلمية فدرسوا في الأول حظ الصّوت ومستحقه (الصفات الذاتية والعرضية)، ودرسوا في الثاني حظ اللسان من تصحيح الأصوات، وحظ العقل من تفسير المعاني وتحديد

محاضرات في علم الأصوات

الدلالات، ثم حظ القلب من الاتعاظ والتأثر، ليفرّقوا بعد ذلك بين القراءات المشهورة منها، والمتواترة والشاذة.

وينضاف إلى جهود علماء اللغة ما استحدثه النقاد والبلاغيون من نظريات في الفصاحة وأضربها، غير أن الدرس الصّوتي بقي يأخذ في أغلبه من علمي الصرف والتجويد، وما أنجزه اللغويون العرب في هذا الموضوع.

ولكن على الرغم من ذلك ما زال الدرس الصّوتي عند المحدثين يعاني قصورا، إذ يستنسخ في الغالب طروحات القدامى، في رأي أحد الدارسين، ما جعل الدراسات الفونولوجية شبه منعدمة[1].

محاضرات في علم الأصوات

1- ينظر حركات مصطفى، الصّوتيات والفونولوجيا، دار الآفاق، الجزائر، د.ت، ص: 11.